المحاضرة الأولى : حضارات الجزائر فيما قبل التاريخ

01 تكوّن الجزائر في ما قبل التاريخ :

اجتازت البلاد الجزائرية ككل بلاد العالم أطوار وعهود ما قبل التاريخ قبل أن تصل إلى هذه الفترة فمرت بفجر العصر الحجري ثم العصر الحجري الأوسط ثم العصر الحجري الحديث الذي تطورت فيه الحضارة الإنسانية تطورا كبيرا وبفضلها اقتحم الإنسان الجزائري العصر التاريخي وتطبع على الاستقرار في القرى والمداشر والاشتغال برعي الحيوانات واستئناسها وزراعه الأرض وفلاحتها كما ألف صنع أدواته من الطين وتعود على صناعه الفخار وتكييف التجارة وتعلم دبغ الجلود والحياكة ونحت الرسوم الهندسية على العظام والصخور وصنع السكاكين والفؤوس وغيرها من الحجر الصوان.

ولقد كانت بلاد الجزائر والشمال الإفريقي الغربي بصفة عامة تتمتع بمناخ معتدل ومطر وافر وبحيات نباتيه مزدهرة غنية خلال العصر الباليوستيني الأعلى ولهذا استقر بها عدد كبير من الجماعات البشرية في الأماكن الخصبة حول الأنهار والبحيرات والهضاب ونشأت بينهم وتطورت حضارات زاهرة منذ العصر الحجري القديم الأعلى نميز منها :

02 : حضارات الجزائر القديمة :

أ ـ الحضارة القفصية:

التي اكتشف بعض آثارها بين منطقة قفصة بتونس الحالية وبعض مرتفعات الجزائر الشرقية حيث جبال الأوراس وتبسه وسوق أهراس وقسنطينة وقد انتقلت هذه الحضارة إلى أوروبا عن طريق جبل طارق وتطورت هناك حتى أصبحت تعرف باسم الحضارة الأوريجناسية [1].

ب ـ الحضارة الوهرانية :

التي لها شبه كبير بالحضارة القفصية وخصائصها وانتشرت في غربي مقاطعة قسنطينة وولايتي الجزائر ووهران وبعض جهات المغرب الأقصى وفي بعض مناطق الصحراء مثل وادي ريغ ووادي ميزاب ولهذه الحضارة كذلك تأثير على الحضارة الأورجناسية بأوروبا ومعلوماتنا عن هاتين الحضارتين مستقاة من بعض الأدوات والجماجم البشرية التي عثر على معظمها في آفلو ومشتى العرب بالجزائر.

ج ـ الحضارة العاترية:

التي انتشرت على طول السواحل الأطلسية المراكشية وتعتبر امتدادا لبقايا الحضارات الموسترية وهكذا وبفضل ازدهار هذه الحضارات عرف إنسان الجزائر القديم البناءات الضخمة في سكناه والمعابد الكبيرة في مدافنه كما عرف الاستفادة من النباتات والثمار والغلال واحترف صيد الحيوانات والأسماك واكتشف استخدام النار وغيرها من مقومات الحضارة القديمة[2].

---

[1] يحيى بوعزيز، **الموجز في تاريخ الجزائر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ج1، ص 23.
[2] يحيى بوعزيز، **المرجع السابق**، ص24.

3 ـ تسميات السكان :

لقد اتفق الكتاب والمؤرخون على تسميه قدماء شمال إفريقيا بالليبيون نسبه إلى إحدى القبائل التي كانت تحمل هذا الاسم ومنهم قبائل الآفري التي كانت تسكن حول مدينه قرطاجنة ومن اسمها اشتقت كلمه إفريقيه على ما قيل وقبائل النوميدي الرحل الذين كانوا يعيشون في نوميديا وقبائل الموري الذين تسمت باسمهم موريتانيا أما كلمه البربر التي أطلقت على سكان شمالي إفريقيا وما تزال حتى اليوم تطلق على جانب كبير منهم فهي تسمية ورغم شيوعها فإنها سياسية مغرضة وليست طبيعية حيث يطلق اليونان والرومان من بعدهم هذا الاسم على الأجناس التي يسيطرون عليها و لا يستطيعون التواصل معهم وتوسعوا في مفهوم هذه الكلمة حتى قالوا أن هذه الشعوب التي لا تستطيع التفاهم معهم و لا شك أنها غير متطورة واقل حضارة منهم .

والثابت أن سكان شمالي إفريقيا القدماء ينتمون إلى مجموعة شعوب البحر الأبيض المتوسط القوقازية أي أنهم من أصل آسيوي ومن أبناء مازيغ ابن كنعان بن حام نشئوا في بلاد ما بين النهرين ثم رحلوا إلى بلاد المغرب عن طريق برزخ السويس ومصر وعن طريق القرن الإفريقي وينقسمون إلى فرعين هما:

البرانس : وهم أبناء برنس ابن بر ابن مازيغ

البتر: وهم أبناء مادغيس الأبتر ابن بر ابن مازيغ

. وقد امتزج بهم فيما بعد عنصر الزنوج الذين كانوا يسكنون الصحراء الكبرى ونزحوا إلى أراضي الشمال حيث اختلطوا بزملائهم الحاميين ومنهم الطوارق الملثمين الذين جعلهم ابن خلدون قسما ثالثا, ومن قبائل شمالي إفريقيا القدماء كتامة وعجيسة ووزداجة وزناتة وصنهاجة واوربه ومصمودة وزواوة ومكناسة وجراوة ومغراوة وغيرها ولكل منها بطون وأفخاذ كثيرة منتشرة في مختلف جهات شمال إفريقيا الغربي بما فيه إقليم ليبيا.

4 . ظهور الكتابة في الجزائر القديمة

ظهرت الكتابة في الجزائر القديمة ضمن سياق التطورات الحضارية التي عرفتها منطقة شمال إفريقيا وحوض البحر الأبيض المتوسط .فقد اعتمد الإنسان في المراحل الأولى على الرسوم والنقوش الصخرية للتعبير عن حياته اليومية ومعتقداته وأنشطته، ثم تطورت وسائل التعبير والتواصل مع ظهور أنظمة كتابية أكثر تنظيمًا.

وتُعدّ الرسوم والنقوش الصخرية المنتشرة في مناطق مثل الطاسيلي ناجر والأهقار من الشواهد المهمة على النشاط الفني والرمزي للإنسان القديم في الجزائر .وهي تصوّر الحيوانات والصيد والمشاهد البشرية وبعض مظاهر الحياة اليومية، لكنها لا تُعدّ جميعها كتابة بالمعنى الدقيق، لأن الكتابة تقوم على استخدام علامات متفق عليها لتمثيل اللغة.

ومع وصول الفينيقيين إلى السواحل الجزائرية منذ الألفية الأولى قبل الميلاد، انتقلت إلى المنطقة تأثيرات كتابية جديدة .فقد استخدم الفينيقيون أبجديتهم في الأنشطة التجارية والتواصل، ثم تطورت الكتابة البونيقية المرتبطة بحضارة قرطاجة، وانتشرت في أجزاء من شمال إفريقيا .وقد ساهم الاحتكاك التجاري والثقافي في تعريف السكان المحليين بأنظمة الكتابة المستعملة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

كما انتشرت الكتابات اللاتينية خلال العهد الروماني، خاصة في النقوش الجنائزية والآثار العامة والكتابات الرسمية .وتُظهر هذه النقوش تعدد اللغات والتقاليد الكتابية التي عرفتها الجزائر القديمة، كما تعكس التفاعل بين السكان المحليين والقوى السياسية والحضارية التي تعاقبت على المنطقة.

ومع ذلك، لم تكن الكتابة في الجزائر القديمة مقتصرة على التأثيرات الخارجية، إذ امتلك السكان البربر تقاليد كتابية خاصة بهم، من أبرزها الكتابة الليبية القديمة التي ترتبط بها تقاليد خط التيفيناغ.

2.أصل خط التيفيناغ وتطوره

يُعدّ خط التيفيناغ من أبرز المظاهر الثقافية المرتبطة بتاريخ الأمازيغ في شمال إفريقيا .وترتبط أصوله بالكتابة الليبية القديمة، التي تُعرف أيضًا في الدراسات التاريخية باسم الكتابة الليبية البربرية .وقد عُثر على نقوش بهذه الكتابة في مناطق مختلفة من شمال إفريقيا، بما فيها الجزائر، مما يدل على قدم استعمالها في المنطقة.

لا يزال التأريخ الدقيق لبدايات الكتابة الليبية القديمة محل نقاش بين الباحثين، لكن النقوش المعروفة تثبت أن سكان شمال إفريقيا استخدموا أنظمة كتابية محلية منذ العصور القديمة .وقد استُعملت هذه الكتابة في تدوين أسماء الأشخاص والملوك وبعض العبارات والنقوش الجنائزية والتذكارية.

أما خط التيفيناغ، فقد استمر استعماله وتطوره لدى بعض جماعات البربر، خاصة الطوارق في الصحراء الكبرى، الذين حافظوا على تقاليده الكتابية عبر الأجيال .ويتميّز هذا الخط بعلاماته الهندسية البسيطة، مثل الخطوط المستقيمة والدوائر والنقاط والأشكال المتقاطعة.

ومن المهم التمييز بين الكتابة الليبية القديمة وخط التيفيناغ الحديث؛ فبينهما صلة تاريخية، لكن أشكال الحروف وقواعد الاستعمال قد تختلف باختلاف الفترات والمناطق .كما أن كلمة »تيفيناغ «تُستخدم اليوم للدلالة على الأبجدية الأمازيغية التي اعتُمدت في التعليم والكتابة الحديثة.

3.خصائص خط التيفيناغ وأهميته

يتميّز خط التيفيناغ بمجموعة من الخصائص التي جعلته جزءًا مميزًا من التراث الكتابي للبربر، ومن أهمها:

- **الأشكال الهندسية :**تتكون علاماته من خطوط مستقيمة ودوائر ونقاط وأشكال بسيطة نسبيًا، مما يجعل بعض حروفه سهلة التمييز بصريًا.
- **الارتباط بلغة البربر :**استُخدم في تقاليد كتابية البربر، واستمر حضوره خصوصًا لدى الطوارق.
- **النقوش الصخرية :**عُثر على نقوش قديمة مرتبطة بالكتابة الليبية في مناطق من شمال إفريقيا، بما فيها الصحراء الجزائرية، وهي شواهد مهمة لدراسة تاريخ السكان المحليين.
- **الاستمرار الثقافي :**حافظت بعض مجتمعات البربر على استعمال التيفيناغ، مما ساعد على انتقاله من جيل إلى آخر.

وتكمن أهمية هذا الخط في أنه يمثل شاهدًا على قدرة سكان شمال إفريقيا على تطوير تقاليد كتابية محلية، كما يساعد الباحثين على دراسة تاريخ اللغة والهوية والتواصل في مجتمعات البربر القديمة .ومع ذلك، فإن قلة بعض النصوص الطويلة أو صعوبة تفسير عدد من النقوش تجعل فهم جميع استعمالاته القديمة أمرًا غير مكتمل حتى اليوم.